تأملات فى الفن :

مدرسة الاحساس

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

— لا تهرى القطة بهذه القسوة . كونى صاحبة إحساس وكونى ذات رحمة

— أرحمة بلسة تسرق طعامى ؟

— ليس مكتوباً عليه بلغة تقرأها هى أنه طعامك ، وإنما هو عندها رزق يسره الله

— ولكنها كانت تدب إليه مشفقة حريصة محاذرة متنبهة متلفتة يمنة ويسرة كاللص الذى يدرك حين يعتزم السرقة أنه يعتزم المنكر

— هى معذورة فقد تعلمت هذا التلصص منا ؛ فهى لا ترانا نفترس ما نأكل وإنما ترانا نربى الحيوان والطير ثم ندب إلى فريستنا منهما دبة اللص فنختلس حياته اختلاساً لا يسبقه صراع ، ولا يسبقه إنذار ... ولم يكن القط هكذا إلا منذ استأنس ، وقبل ذلك كان يفترس ، أو يأكل مما يخلفه كبار السباع

— وهل فى القط ذكاء يدرك به هذا كله ؟...

— إن الأمر لا يحتاج إلى ذكاء ، وإنما هو يحتاج إلى إحساس . ألست تدخلين على جماعة من الناس فتعرفين إذا كانوا على حزن أو على فرح ، أو على صدق أو على غش ؟!

— قد أعرف ذلك مما أرى فى وجوههم من أثره ...

— ومن الناس من يعرف وهو مطرق إلى الأرض ، ومن الناس من يعرف وهو مغمض العينين والأذنين ، ومن الناس من يعرف وهو على البعد لا يتمكن من نظر ولا سمع

— باللاسلكى ؟!

— نعم ؛ ففى قلب كل مؤمن جهاز يدله ، ومن هذه الأجهزة طويل الموجة ، ومنها قصير الموجة ، ومنها ما هو متصل بتيار لا ينقطع ، ومنها ما يعبأ (ببطاريات) تفرغ وتملأ ، ومنها ما يستقبل القريب فقط ، ومنها ما يستشف المحطات البعيدة ... وهكذا ، فالكون كله إذاعات واستقبالات جلّت على ماركونى وإن سلمت للأستاذ حسن كامل

— هذا العجوز الذى ظهر سكيراً فى فيلم العزيمة ؟ إنه ممثل ممتلىء حقاً ولكنى لم أكن أحسب أنه يعلم ما لا يعلمه ماركونى ...

— ويعلم ما لم يكن يعلمه فرويد كذلك

— ما شاء الله ! لعله اخترع آلتين تتزاوجان وتنجبان البنات من الآلات والصبيان !

— بل تمكن من إيجاد إنسان يعيش من غير غريزة فرويد فيستطيع أن يتحادث مع الطير والحيوان

— على طريقة سيدنا سليمان ؟

— إذا لم تكن هناك إلا طريقة سليمان فهو إذن على طريقة سليمان . وهو إذن يعيش بين دجاجه وأرانبه وإوزه وكلابه ومعيزه ملكا مدبراً حكيما لا يعيبه إلا أنه يأكل رعاياه

— وكنت تريد ألا يأكل منها

— ربما كان هذا أحلى ؛ ولكن الذى يصنعه على أى حال حلال ؛ فلا ريب أنه للانسان على ما هو دونه ومن فى حماه حق الرعاية بالحكمة وله أن يتقاضاه روحاً وحياة

— أنت تجعل الذى بيننا وبين الحيوان عشرة أظن لها عندك قوانين وأصولاً

— الطبيعة فرضت هذه القوانين والأصول ، وقد كان القدماء شديدى الاعتراف بها ، ولا يزال الفلاحون يحترمون هذه القوانين والأصول فيما بينهم وبين ما ينفعهم من الطير والحيوان ، وإن كنا نحن فى المدن قد أنكرنا هذه القوانين إنكاراً استدعى أن تقوم فينا جمعيات للرفق بالحيوان تصيح فى آذاننا تطلب له رحمة كان يجب علينا أن نحسها من تلقاء أنفسنا لولا أننا قد تحجرت نفوسنا وتخشبت من شدة إقبالنا على عشرة الحديد والحجر والخشب ... فلم يعد أحد منا يعطف على حيوانه عطفه على ولده الذى فى عنقه

— هذا الذى تطلبه كثير ، وهو ليس من الطبيعة فى شىء

— لو لم يكن من الطبيعة لذبح إبراهيم ولده

فلو أنك كنت تشعرين بالحياة حولك، لكنت تبادلت الحس مع الحيوان ... ولكنت أدركت الحق فيما أقول ... ولكن كيف أطلب منك الإحساس بالحيوان وأنت منصرفة حتى عن الإحساس بالناس ، وحتى عن الإحساس بنفسك ...

— حتى نفسى ترمينى بإغفالها والبعد عنها ؟ ...

— ولست وحدك هكذا ، وإنما أغلب أهل هذا العصر هكذا وأكثرهم تردياً فيه أهل المدن ، وأكثر أهل المدن تردياً فيه وانطماساً أولئك الذين يتعلمون فى المدارس ، وأكثر المتعلمين تخبطاً فيه وانتكاساً أبناء معاهد الفن فى مصر، فهؤلاء يستعرضون صوراً مختلفة للحس ، ولكنهم لا يقفون عند واحدة منها وقفة التأمل والتذوق ، وإنما هم يحصونها عداً ويحسبون هذا الإحصاء علماً ، فيخرجون به إلى الدنيا ونفوسهم مشوشة مختلطة حائرة ... ومع هذا كله ، فغرورة متكبرة ...

— وهذا فى مصر وحدها أو فى العالم كله ؟

— أظنه فى مصر وحدها ... فهم فى الغرب إذا كفروا لم يكفروا حتى يؤمنوا بكفرهم ، ونحن هنا ننتظر حتى يكفروا فنجرى وراءهم ، فإذا آمنوا آمنا ، فإذا كفروا كفرنا ونفوسنا فارغة لا يعمرها إيمان ولا كفر ...

— وهل يعمر الكفر النفوس ؟ ...

— إذا كان كفراً خالصاً لوجه الحق كذلك الكفر الذى شاع فى أوربا فى القرن الماضى وفى سوابقه ، إذ تفتحت عيون عشاق الحق هناك على أباطيل رأوا أهل الدين يستمسكون بها ، فقالوا لهم تعالوا ندع هذه الأباطيل ونحرر أنفسنا ونفكر بعقولنا، فقال لهم أهل الدين: ليست لنا عقول إذا رددتنا المعقول عما وجدنا عليه آباءنا ، وإنه لدين آمنا به ولن نحول عنه ، فقالوا لأهل ذلك الدين : فليكن إذن لكم دينكم وليكن لنا ديننا ، ثم قالوا للناس جميعاً : إنما نحن نسعى إلى الحق بعلومنا وعقولنا ، وليس لنا شأن بأخصامنا ، ولسنا ندعو الناس إلى جنة أو نار ، فالجنة والنار حديثهم ، وإنما نحن نقول إن عباد الشمس الأزرق يحمر إذا أضيف إلى حمض ، كما نقول إن الهيدروجين أخف من الأكسجين وثاني أكسيد الكربون ، وإن الأرض مجذوبة إلى الشمس ، وإن الشمس تسبح فى الفضاء وإن وإن... وليستمع لنا من يريد وليستمع لهم أيضاً ، فإذا شاء أن يودع عقله بين أيديهم فليستغن عن عقله وهو عندهم حتى إذا جاءنا استحضره ... هذه حال حدثت فى أوربا ، ولأنها حدثت فى أوربا فقد أحدثنا مثلها قولاً فى كلية الآداب عندنا وقلنا إن العلم شىء وإن الدين شىء ، مع أن ديننا هو العلم نفسه ، وهو العقل نفسه ، ولم يحدث أن احتضن يوماً خرافة ، أو أظل باطلاً ... وإن كان بعض أصحاب الغرض قد رشقوا فى حواشيه بعض ما ينافيه ، مما هو ظاهر للعين زيفه وغرابته عن سلامة الفطرة وحكمة الحق ... وقال الغرب يوماً إننا لن نؤمن بشىء حتى نبدأ بالشك فيه ونعقله بعد ذلك إلى نهايته حتى نصل إلى حقيقة أمره ، فنراها فنؤمن عندئذ بها ، ولم يقل الغرب هذا إلا من ثقل ما كان يراد به أن يحشره فى إيمانه من أوهام ، وأكاذيب ... فقلنا نحن أيضاً مثلما قال الغرب: لن نؤمن بشىء حتى نشك فيه أولاً وبدأنا نشك فى أغلى تراثنا حتى لقد شككنا فى قصة إبراهيم يوماً

— وهل أثبت التاريخ قصة إبراهيم ؟ العلم لا يرضى إلا بالإثبات العلمى ، وللاثبات العلمى شروط

— وهل أثبت التاريخ أن الأرض كانت جزءاً من الشمس إثباتاً علمياً بالشروط إياها ؟ وهل يستطيع التاريخ أن يثبت كل حقائق الوجود ؟ إذا كان الأمر كذلك فقولى لى كيف يثبت التاريخ أن هانيبال كان يتنفس مثلما نتنفس نحن مع أن هذا شىء لم يرد فى وثيقة تاريخية واحدة مستوفاة لشروط التحقق والتحقيق التى تطلبينها ! بل إنه لم يرد فى وثيقة أصلاً ! أفتستطيعين أن تشكى فى أن هانيبال وأباه كانا يتنفسان لأنه لا وثائق تثبت ذلك ؟ أفإذا ضاعت منك شهادة ميلادك ظننت أنك ربما تكونين قد انعدمت لأنه لا ورقة رسمية معك تعترف بك ؟ حتى لو حلف الناس بوجودك وشهد أهل بلدك بنسبك ؟

فتذوق العلم ... وتذوق الأدب ... وتذوق الفن ... وتذوق الحياة ... عيشى على مهل ، تغرسى فى كل شىء ... أيقظى إحساسك ، ولا تقفزى بعقلك إلا بعد أن يراح إحساسك إلى ما أنت فيه ... فلو فعلت أنت هذا، ولو فعله الناس جميعاً ، ولو فعله أهل الغرب على الخصوص ، لخفت كوارث البشرية ولهان من مصائبها الكثير ... أفلو تريث أولئك الذين يخترعون الغازات السامة والقنابل والبلاوى الزرق الفتاكة بالناس ، وحاسبوا عقولهم بضمائرهم واستشعروا ما تجره اختراعاتهم على إخوانهم من ويلات ...